الكَفُّ

يد السّــت ملفوفة بحرير، تحبُّ النساء مجلسها لأن وجهها مكشوف. تحيك أقدارهن في هدمة تلتف حول الخصور، تفصّل قمصان النوم بحمالات رقيقة، من الساتان، والشيفون. تجيد استخدام المازورة، وتكليف الملابس بالقطيفة. تتقن السرفلة والرسم على الصدور. في بيت ورثته عن زوجها، تعيش مع ماكينة تعمل بالزيت، وتلفاز ببطارية قديمة. يستطيع السائر جوار بيتها أن يشم رائحة عرس قادم. منذ خمسة أعوام بدأت الست في الاحتفال بالعرائس بطريقــة جديدة، فتّحت أعين البنات عــلى الحياة الأخرى بعد الزواج، علّمت النساء صنع الحلاوة، قص الشعر، وباعت أصابع الروج الفاقعة. تأتي الصبايا إليها قبل أسبوع من الزواج، وتتولى أنامل الست كل ما يلزم العرس. شرط أن تحمل العروس السَّــبَت، وتسير على نخلة أمام عينيها، دون أن تقع في الترعة.

على هذه النخلة سارت عزة بثبات، تحمل فوق رأسها سَبَتًا مليئًا بأكياس السكر، والشاي. يتراقص السَّبَت فوق حَواية من القماش، وأمها تحمل ملابس العرس في سَبَت آخر. دخلت عزّة من الباب الخارجي بقدمها اليمنى، ومن بعدها الأم بزغرودة طويلة. استقبلتهما الست بصينية من ماء الورد ووضعتها على العتبة، خطّت العروس من عليها، وقبّلت يد الست. جلست جوار الماكينة استعدادا لتفصيل الملابس.

السّت تعرف طينة العروس من أول شق في هدمتها، من مسكة المقص، من لضمة الإبرة. اعتادت أن تفصّل ملابس العرس بعد قيام الليل، وعزة طينتها غريبة، لم تمر عليها من قبل، لم يجرحها المقص لتعرف أن العروس ستمر بأيام صعبة، بل كان المسك يفوح من ملابسها، وكان المقص ليّنًا، لا يحتاج لزيت ولا سنّ. بمجرد أن لمست الثوب ارتجفت، وأحست برعشة تتسرب إلى دماغها، أمسكت المقص وبحثت عن العلامة التي وضعتها أثناء وجود عزة فلم تجدها، ولم تجد العلامات الأخرى التي وضعتها في أثواب القماش. وقع المقص من يدها، وأحست بالرعشة تزداد قوة، تسيطر عليها تمامًا، تزلزلها، وشعرت بمذاق علقم في فمها. حاولت أن تقوم من مجلسها لتشرب، وقعت على الأرض، تخشَّبتْ عليها، وقبل أن تفقد الوعي سمعت زنًّا كصوت النحل في أذنيها، ولم تبصر نورًا؛ العرق أغشاها وبقّع وجهها بحمرة قاتمة.

لأسبوع لم تفتح بابها للزوار، لم تُرُدَّ على نداءات أقاربها، حتى ظنّت والدة العروس أنها ماتت. دارت تشمم الجدران وتسترق السمع. كانت رائحة المسك لا تزال تفوح من البيت، وتشعرها بالطمأنينة مع صوت إذاعة القرآن الآتي من غرفة النوم. السِّت تشعر بأنفاسهم ولا ترد، تكرمش ثوب عزة في حضنها، تأكل وتشرب وتستلقي على سريرها، وتقول على الدنيا السلام. حتى جاءتها عزة أخيرًا بصحبة الأم والخالة، ونقرت على الباب ثلاثًا، وقالت بصوتها الرقيق «افتحي الباب يا ست رقية». قامت الست على الفور من نومها، وفتحت الباب بظهر مَحْنيٍّ، وشامة كبيرة ظهرت فوق حاجبها، ورقبتها مزيَّنة بعقد من العاج. أحضرت لهن السَّبَت، وقدمت الثوب لعزة، واندهش الجميع برؤية أثواب القماش ممزقة، وبدلا من فستان العرس قدمت الست كفنًا للعروس. اشتعلت الأم من شدة الغيظ، هاجت تصفع الست الخيّاطة وتضربها، بينما ركضت عزة إلى البيت فَزِعَة، وحملت الخالة أختها مع سبت الملابس إلى خيّاطة أخرى، في بلد مجاور، حتى تأمن شر الأعين، والألسنة، والحكايات.

رأى الناس أن الست فقدت عقلها، ورأى البعض أن زواج عزة لن يدوم، وأشاروا جميعًا عليهم بزيارة المقابر ودهن أبوابها بحناء العروس، وكل شر زائل بإذن الله. لم تغادر عزة الفراش ليومين، وفي اليوم الثالث رقصت مع بنات خالتها، صنعت معهن الحلاوة، وقصّت أطراف شعرها، وأحضرت لها صديقتها الروج الفاقع من عروس سابقة. دقت الطبول

بعد المغرب، عـلى خصرها الذي اهتز في منتصف الدائرة، وبنات خالتها يصفقن أسـفلها. تعلو زغاريد النسـاء حولها، مع وصول حناء العريس عـلى رأس حماتها، ترقص أمام ولدها وتغني «ادلع يا عريس يا أبو لاسـة نايلون»، يطمئن قلب عزة تمامًا بعدما يجلس العريس جوارها ويهمس في أذنها «مبروك يا عروسة».

في حضرة النساء دهنت الأم كعبَي عزة وكفَّيها، ومن أراد من البنات، وهرب العريس منهن إلى الخارج. وبعد انتهاء الحفل أخذت نساء العائلة مـا تبقى من الحناء، وذهبن بعد منتصف الليل إلى الجبانة. خيط رفيع من الضوء يرشدهن إلى أبواب القبور، يضعن كفًا من الحناء في منتصفها، مع السلام على ساكنيها، وتمتمات أطلقنها عندما رأَيْنَ ظل الست تحت شجرة الجميـز الكبيرة. كانت تقف هناك ممسـكة بمقص. تقطع بعض الأوراق والأقمشـة، وبإبـرة لامعة وطويلـة تصنع عدّة أحجبـة وتبرطم بكلمات مسموعة. تجاهلتها النساء وابتعدن عن الجبانة، لكن عينيها ظلتا تراقبهن بفزع، وظلت أناملها ترتعش، لا تعرف ما الذي أصابها، وما اليقن الذي يمـلأ فؤادهـا. لم تعرف البلدة عنهـا الكرامة من قبل، لكـن فؤادها رأى جثمان عزة ممددًا على الخشبة، والنسوة تغسّلن جسدها الجميل وتتحسرن على شبابها وأحلامها. لم يكن هذا فقط ما سكن عينيها، ففي ليلة أخرى، رأت بنات خالتها يتشاجرن على روائحها، الملابس، الحلي، حتى ملابس عزة الداخلية تشاجرن عليها.

بدأت الأرض تجذب الست إليها، توسوس لها بالحقائق، تسمع ما يدور في السماوات البعيدة، وترى من وراء الغيوم والسحب ما سيكون، غدًا. الحقيقة ملك يمينها، بإذن الله، والبلدة تسمع همساتها، في الشوارع الترابية، وترى جلستها على الأرض مربعة أمام الصغار، تنادي عليهم لتقرأ الودع، والحصى، والتراب العالق في ملابسهم. الشيطان مسّها ووسوس في أذنها، لتظن في نفسها العرافة، ولم يكن لها مثل هذا الشأن. تجاهلها الكبار وقذفتها النساء في عرضها، أما الأطفال فقد سخروا منها، لكن هذا لم يمنعهم عن التجربة. طفل هزيل مثل عود قصب، وقف أمامها طويلًا ونظر إلى عينيها، وكانت تراه من العين التي بدأ البياض يسكنها، أما الأخرى فكانت جاحظة، ومخيفة، ويداها ظلتا ترتعشان، هناك ما يخيفها لهذا الحد. أشارت للصغير أن يقترب ففعل. جلس أمامها وبدأ يستمع إليها متوجسًا، ولمدة ظلت صامتة، لكن الصغير أنصت إلى أنفاسها اللاهثة، قبل أن تقول «لا أحد يصدق، لكنك ستفعل، عزة الآن في فراشها، ينفخ الله في جسدها بروح جديدة، سيكون ولدًا». لم يعرف الصغير ماذا يفعل، سوى الهروب بعيدًا، ولمّا وصل إلى بيت أم عزة، قال لها « يا خالتي!»، وحكى ما دار، فبدا عليها الغضب، وأرادت أن تذهب إلى الست لتفتح رأسها بحجرٍ؛ لا تزال توسوس بالحكايات عن ابنتها، بعد مرور أشهر على الزواج، لا تزال تفتي في غيبها، وتتقوَّل على الله بأشياء لم ينزلها.

التقطت الأم طرحتها، خرجت من البيت والشياطين تقفز أمامها،

ترشـدها إلى مكان السـت. لم تتوقع أن تتعثّر بـزوج ابنتها ليخبرها «عزة حامل»، ذهبا إلى طبيبة الوحدة، وأخبرتهما بالبشـارة.. هنا، أحسـت الأم بصوت يدعوها لتكمل الطريق، الشـياطين حولها، واحد يتجسد في هيئة رجل مسـن يمسك عكازا ويشـير لها ناحية الجبانة، حيث تجلس الست. أخبرت زوج ابنتها أنها سـتأتي، بعد قليل، لزيارتهما، لكنها الآن ستذهب إليها بخطًى مرتبكة، وتجلس أمامها في خشـوع. تخبرها السـت أن ابنتها سـتنجب ولدًا، وأن طاقات النور سـتحل على أهله جميعا، وأنه سـيتبوأ مكانـة كبيرة بين الناس. تمر الأيام وتتحقق نبوءات السـت لأهل البلدة، وكلها خير وبركة، يسرع الكبير والصغير في ودّها. يبنون لها حجرة صغيرة جوار المقابر. أرسلوا لها الطعام، دعوها في الأفراح والمآتم، التمسوا منها البركة والفأل الحسن.

كل يـوم يمرّ على عزة يزيدها حسـنًا، والعرافة قالت إن جمال وليدها سيتجلى عليها، يدوّر وجهها، ويطوّل شعرها، وكانت عزة تراه في منامها، شابًا جميلًا يحملها في ثياب العرس، ويضعها فوق هودج يحمله جمل بسنامين. وفي يوم صحت على طلق أسفل ظهرها، يشتد بسرعة بين الحين والآخر. جاءت أمها على الفور، وشممتها بيضة مقلية لتعرف إن كانت ستلد الآن، رغم أن الطبيبة أجزمت بذلك. اشتد الطلق على عزة، وكانت طلقة الرأس هينة رغـم ذلك. رأى الجميع نورًا يخرج مـن فرجها، طاقة قدر أطلقت الزغاريد على حسِّـها، وصلت إلى الست وقادتها إلى باب البيت. دخلت

إليهن على عجالة، ممسكة بسُرَّتَين، ابتسمت عزة لمّا رأتها، أغمضت عينيها للأبد. كانت ذراعَا الست مثل ميزان، في يدها اليمنى جلباب للوليد وفي الأخرى الكفن.